الفصل الثانى

الخطوط العربية الأولى

وهذا الخط الذى انتهى إلى العرب، تذكره المصادر العربية بأسماء عدة : تذكر منه الخط الحيرى والخط الأنبارى والخط المكى والخط المدنى والخط الكوفى والخط البصرى، بعضها عرفه العرب قبل إسلامهم والبعض عرفوه بعد الإسلام .

ومن أسف أننا لا نعلم كثيراً من خصائص هذه الخطوط المبكرة غير القليل الذى يذكره صاحب «الفهرست» الذى حاول وصف الخطين المكى والمدنى بطريقة تدعو إلى الاعتقاد بأنهما خط واحد.

والمرجح أن تكون الفوارق بين هذه الخطوط جميعاً فوارق تجويد لا فوارق خصائص ؛ لأن العرب الذين تلقفوا ظاهرة الكتابة وهى على حالة من البداوة شديدة، لم يكن لديهم من أسباب الاستقرار ما يدعو إلى الابتكار فى الخط الذى انتهى إليهم ، ولم تبلغ هذه الظاهرة لديهم مبلغ الظاهرة الفنية إلا عند ما أصبحت

للعرب دولة تعددت فيها مراكز الثقافة ونافست المراكز بعضها بعضاً على نحو ما حدث فى الكوفة والبصرة ، والشام ومصر ، ومراكز الثقافة العربية فى المغرب ومراكزها فى الشرق .

ويرجع عجز المؤرخين العرب عن وصف هذه الخطوط المبكرة وصفاً يفصح عن خصائصها ويعرفنا بها تعريفاً شافياً إلى بعد ما بينهم وبينها من زمن وإلى فقد نماذجها . وأول من تناول هذه الخطوط بالكلام ابن النديم المتوفى ٣٨٥ هـ على أن الدراسة الحديثة لظاهرة الخط العربى الشمالى ، وهى الدراسة المدعمة بالوثائق قد أثبتت أن العرب كانوا يميلون إلى تسمية الخطوط بأسماء أقليمية مع تشابهها واتفاقها فى الخصائص ، لأنهم استجلبوها من تلك الأقاليم ، فنسبوها إليها على نحو ما تنسب السلع إلى الأماكن المستجلبة منها . ولا غرو فقد استجلبها هؤلاء مع التجارة ، ومن ثم عرف الخط العربى قبل عصر النبوة بالنبطى والحيرى والأنبارى لأنه ورد بلاد العرب مع التجارة التى كان يمارسها القرشيون مع الأنباط من ناحية ، ومع إقليم السواد فى العراق من ناحية أخرى ؛ وبانتهاء الخط إلى المدينة ومكة وشيوعه منهما إلى جهات أخرى عرف باسميهما فيما عرف من الأسماء . ولما انتقل مركز النشاط

السياسى إلى العراق وصحبه انتقال مركز الثقافة فى خلافتى عمر وعثمان ثم فى خلافة على بن أبى طالب، انتقلت معه الخطوط المعروفة « المدنية والمكية » إلى البصرة والكوفة وعرفت هناك باسم الخط الحجازى لانتقالها من الحجاز.

ولم يقدر للخط العربى أن ينال قسطاً من التجويد والابتكار إلا فى العراق والشام حيث فرغ العرب إلى تجويده والابتداع فيه، بعد أن فتح الله عليهم كثيراً من الأنحاء وغدت لهم عمارة وفنون واحتاجوا إلى التدوين . وما يقال عن العراق يمكن أن يقال مثله عن الشام ، ولا شك فى أن الأمويين فى الشام قد أولوا الكتابة عناية فائقة ، وأن أول مبتكراتها كانت فى الشام دون العراق .

وينسبون إلى الكوفة خطاً يقولون إنه أصل الأقلام المخترعة هو « الخط الكوفى »، وتلك نظرية ثبت إسرافها فى الخطأ. ويذهب الآخذون بهذه النظرية من القدماء والمحدثين إلى أن الأقلام تولدت من الخط الكوفى الجاف الذى يميل إلى التربيع ، ولده أناس عددوا صور الخط العربى والواقع غير ذلك — إذ المعروف المقطوع به الآن أن الخط الذى انتهى إلى العرب الشماليين من

الأنباط ومن حوض الفرات الأوسط ، من الحيرة والأنبار كان على نوعين: نوع شديد الجفاف مولد من خطوط العبرانيين والتدمريين وكلها اقتطاع من الأم الارامية المربعة ، ونوع آخر لين يميل إلى الاستدارة ، وكانت تؤدى بكل نوع منهما أغراض خاصة ، فالخط اليابس عرفه الأنباط ونقشوه على الأحجار وخلدوا به أخبار ملوكهم وأمرائهم وحوادثهم الجسام. وكان للخط اللين أكثر مطاوعة وأسرع إنجازاً ، أدوا به أغراضاً عاجلة ، ودونوا به مذكراتهم اليومية وكتبوا به المراسلات — غير أننا لانستطيع أن نعرف على وجه التحقيق ذلك النوع من الخط ، ولكن الذى نعرفه من وصف ابن النديم للخطوط العربية الأولى أن خط المدينة كان أنواعاً منها المدور والمثلث والتئم ، ومعنى ذلك أن العرب عرفوا الخط المستدير قبل الإسلام، وعرفوا خطاً آخر مثلثا، وخطاً ثالثاً كان فى الغالب جمعاً بين النوعين . وتدلنا الوثائق التى فى أيدينا من الخطوط النبطية المتطورة إلى العربية كنقش زبد ونقش حران ونقش النمارة على أن العرب ورثوا فيما ورثوا عن الأنباط خطاً يميل إلى التربيع ... وإذن فهذا الخط المربع الذى ذهب الناس إلى أنه خط الكوفة الذى اشتقت منه الأقلام أقدم

عهداً من إنشاء الكوفة التى بنيت بين عامى ١٨ ، ٢٠ للهجرة ، ولما كان اشتقاق العرب للخط ضرورة من ضرورات التجارة التى مارسوها مع بنى عمومتهم من الأنباط ، دونوا به مذكراتهم اليومية — على نحو ما كان يفعل النبط أصحاب هذا الخط — كان من المعقول أن تكون منه صورة أقرب إلى الاستدارة منها إلى التثليث أو التربيع ، لأن التدوين وتأدية الأغراض اليومية تحتاج إلى سرعة ومطاوعة ، وما نظن أن كتاب الوحى كتبوا بهذه الصورة

كتاب النبي إلى المقوقس يدعوه فيه إلى الإسلام

اليابسة التى نراها على الأحجار النبطية المكتشفة فى زبد وحران

والنمارة ، كما لا نتصور أن يكون الخلفاء الأوائل قد تراسلوا مع عمالهم بهذا الخط الجاف — ومن ثم يتطرق الشك إلى أن خطاب النبي عليه السلام إلى المقوقس قد كتب بهذا الخط الذى نراه به ، وهو خط أقرب إلى هيئة الكوفى المربع منه إلى خط التدوين العادى .

وهناك وثيقة هامة مؤرخة ٢٢ للهجرة هى خطاب صادر من أحد عمال عمرو بن العاص على اهناسية فى مصر مكتوبة بالعربية واليونانية تقطع بأن العرب فى هذا الزمن المبكر كانوا يعرفون الخط اللين ويتراسلون به — وتاريخ هذه الوثيقة متأخر عن إنشاء الكوفة عامين اثنين ، وهى مدة لا تكفى لتوليد خط لين من خط يابس وإشاعته وتجويده ، ومعنى ذلك أن العرب عرفوا الخط اللين أو خط « الديونة » قبل إنشاء الكوفة التى ينسبون لها خطاً شديد الجفاف كثير التعقيد ، ومعناه أيضاً أن الخط اللين على صوره المختلفة ليس توليداً من « خط الكوفة » كما أشاع القدماء .

والأرجح أن يكون الصواب فى هذه المسألة أن الكوفة جودت الصورة اليابسة من صور الخط النبطى وأبدعت فيها حتى عرفت بها ، فى حين عنيت أوساط أخرى بغير هذه الصورة حتى غدت

بدورها بادية الحسن صالحة للاستعمال ، كما لا بد أن تكون الكوفة قد ساهمت فى تجويد الخط اللين ذاته لشدة لزومه للتدوين .

وكثر استخدام الصورة اليابسة هذه فى كتابة المصاحف ، وظلت المصاحف تكتب بالخط « الكوفى » زهاء أربعة قرون . وفى هذه الصورة « الكوفية » جلال يتناسب مع جلال القرآن ولذلك بقيت الحروف الكوفية مفضلة فى كتابة المصاحف حتى حل محلها فى كتابتها خط جميل رائق ابتدعه الأتابكة فى الموصل وشمال الشام وكتبوا به المصاحف هو خط النسخ ، وجاء المماليك فآثروا عليه خطاً أكبر كتبوا به مصاحفهم هو الخط المعروف بالطومار بمشتقاته المختلفة ، رأوه أكثر مناسبة لكتابة الكلم المقدس لجلاله ووضوحه وروعته .

وهكذا انتقل الخط إلى العرب الحجازيين على نوعين هما فى الاصطلاح الفنى التقوير والبسط .

وبالأول منهما وهو الخط المقور (المستدير) كتب كتاب النبى عليه الصلاة والسلام ، وبه كتبت المصاحف الأولى ،

منها مصحف عثمان المعروف بالمصحف الإمام وعند ما استعر القتال فى اليمامة ، وخيف على كثير من حفظة القرآن أن

نموذج من خط المصاحف
الكوفى ق ٣ — ٤ هـ

يستشهدوا أرسلت من القرآن نسخ بهذا الخط إلى البصرة والكوفة والشام .

* * *

وكانت الكتابة قبل الإسلام قليلا فى الأوس والخزرج ،

وكان يهودى من يهود ماسكة قد علم الكتابة فأخذ يعلمها الصبيان . وجاء القرآن وفى قريش بضعة عشر نفرا يكتبون منهم سعيد بن زرارة ، والمنذر بن عمرو ، وأبى بن كعب ، وزيد بن ثابت (الذى كان يكتب الكتابين جميعاً العربية والعبرانية) ورافع ابن مالك ، وأسيد بن خضير ، ومعن بن عدى وأبو عبس بن كثير ، وأوس بن خولى وبشير بن سعد ، وعن هؤلاء تعلم كثير غيرهم الكتابة .

وأشهر كتاب النبى عليه السلام أبو بكر وعمر وعثمان وعلى ، وأبو سفيان وابناه معاوية ويزيد ، وسعيد بن العاص وولداه إبان وخالد وزيد بن ثابت والزبير بن العوام وطلحة وسعد بن أبى وقاص وشرحبيل بن حسنة وعبد الله بن سعد بن أبى سرح والعلاء بن الحضرمى وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص ...

* * *

أما المواد التى استخدمها العرب الأوائل فى الكتابة ، فهى القلم المصنوع من الغاب والمداد المصنوع من « السناج » . وكان العرب يكتبون على العسيب وهو جريد النخل بعد أن يكشط عنه الخوص ،

وعظم الجمال، وقطع الخزف والشقف واللخاف والأديم والرق والبردى المصرى على هيئة القرطاس .

وكان استخدام العرب للبردى المصرى أول عهدهم بمعرفة الورق . ويرجع عهد معرفتهم به إلى الوقت الذى فتح الله عليهم هذه البلاد بعد السنة العشرين من الهجرة .